«ثقافتنا» أمام تحديات جديدة

(الصفحات ٩- ٢٨)

بعد وقفة في إصدار «ثقافتنا» نعود بإذن الله إلى مواصلة الطريق والعود أحمد. غير أننا في هذه المرحلة الجديدة تواجه ثقافة أمتنا ومسيرتها الحضارية تحديات جديدة.

من الواضح أن هذه التحديات قد ظهرت لمواجهة الفرص الجديدة التي ظهرت في ساحة أمتنا بعد أن حققت انتصاراتها المتوالية في إطار المقاومة والصحوة الإسلامية.

يستطيع المراقب أن يرى بسهولة ما تشهده الساحة الإسلامية من عواصف مخرّبة بعد كل انتصار. وهذا يشير بوضوح إلى أمرين:

الأول: إن قوى الطغيان العالمي تبذل ما في وسعها لصدّ أي خطوة لأمتنا نحو استعادة وجودها وهويتها وكرامتها ومكانتها الحضارية على ظهر الأرض.

الثاني: إن أمتنا بحاجة إلى وعي في حقل البناء أكثر منه في حقل الهدم. إذ كل هدم للواقع الفاسد سيحرّك القوى المضادّة المهتمة بتكريس الفساد والتخلّف إلى إثارة زوبعة تنسيها أهدافها الكبرى، وتسوقها نحو البقاء في دوافع غرائزها الهابطة. من هنا كانت الحاجة إلى وعي متصاعد في فترة ما بعد الهدم، ومن هنا كان الهدم جهادًا أصغر والبناء جهادًا أكبر.

ما مرّ على أمتنا بعد انتصارات الصحوة الإسلامية وانتصارات المقاومة، فيه

دروس على غاية من الأهميّة يجب أن تعيها أمتنا وتدرسها دراسة تعينها على طريق استعادة مسيرتها الحضارية.

هذه الدروس كثيرة، غير أننا نقف عند ظاهرة (داعش) ففيها أكثر من درس، وفيها أهم درس خاصة في وقتنا الراهن حيث تصاعدت وأصبحت الشغل الشاغل لحديث الساحة الإسلامية بل العالمية.

أول هذه الدروس أن هذه الظاهرة مدعومة من جبهة عربية عبرية غربيّة. هذا ما يذكره المراقبون المتتبعون لخلفيات داعش والمهتمون بجمع الوثائق في هذا الشأن.

نعتقد أن العنصر العبري المتجلّي بالصهيونية هو الذي يسوق العنصر العربي والغربي في اتجاه هذا الدعم، والدليل على ذلك أن ظهور داعش ليس في مصلحة أي بلد عربي ولا غربي، بل إن المستفيد الأكبر إسرائيل والصهيونية العالمية التي ترى في ما تحققه داعش يصبّ تمامًا في مصلحتها.

وهذا يعني أن أمتنا بل الشعوب المحبّة للعدل والسلام جميعها يجب أن تعي بأن العالم الإسلامي بل العالم بأجمعه سوف يبقى يعيش أحداث ١١ سبتمبر وأحداث الحروب العنصرية والحروب الطائفية والأزمات الاقتصادية والنزاعات الحدودية مادامت غدة الصهيونية السرطانية متوغلة في جسده.

إن معظم المؤسسات السياسية الحاكمة في العالم تشعر بالهزيمة النفسية أمام الصهيونية العالمية بسبب تهديدها وإغرائها وإيقاعها في مآزق أخلاقية، لذلك فإن الصوت الذي يجب أن يرتفع هو صوت العلماء والمثقفين والكتّاب والفنانين، فلطالما كان لهذا الصوت دوره في تحرير الشعوب والقضاء على طواغيت الأرض. هذا الصوت يجب أن يتصاعد فوق صوت قوى الهيمنة العالمية، رغم ما تملكه هذه القوى من إعلام.. فصوت المطالبين بالعدالة وحقوق الإنسان ومقارعة الظالمين هو

صوت الفطرة، وسوف يكون له أثر النار في الهشيم إن تصاعد بشكل منسجم وقويّ وبعيد عن روح الهزيمة.

هذا يتطلب نهضة عالمية على مستوى المخلصين من أصحاب الكلمة والفكر والفن والعلم ليأخذوا زمام الأمور بأيديهم ، وأن لا يتركوها بيد المهزومين والضعفاء والساقطين في شرك الصهيونية العالمية.

المضحك المبكي أن كل تحرك ضد هذه الغدّة السرطانية يوسم بأنه «معاداة للسامية»!! وهذه من الكوارث التي أنزلها الصهاينة بالقوانين الدولية.. فهم يتهمون من يعارضهم بالعنصرية بينما هم على رأس قائمة التعصب العنصري والاستئصال العرقي والإرهاب الدولي في العالم، وليست محاكمة روجيه غارودي المفكر الفرنسي الحرّ عنا ببعيدة،فقد حوكم وأدين فقط لتشكيكه بالمحرقة المزعومة، وحدث هذا في بلد يعتبر نفسه حاضن الحرية الفكرية في أوربا.

أما الدرس الآخر لظاهرة داعش فهو استهدافها لكل الشعارات الإسلامية التي يعتزّ بها كل مسلم.. فرايتها السوداء الملطخة بالدماء تحمل أقدس ما عند المسلم من كلمة وهي الشهادتان، والاسم الذي وضعته على نفسها من أقدس ما يحمله المسلمون من أمل في استعادة وجودهم وهو «الدولة الإسلامية»، وعلامات أصابعهم عند الذبح تعبّر عن أعظم مبادىء الإسلام وهو التوحيد.

كل هذه الكلمات الحبيبة إلى قلب المسلمين جميعًا قد مُزجت بقطع الرؤوس والتمثيل بالمقتولين وبأبشع ما يمكن أن يحدث في تاريخ البشرية.

ثم إن ممارسات داعش تصبّ تمامًا فيما تريده الصهيونية أن تعطيه من صورة عن الإسلام للرأي العام العالمي عامة، والرأي العام الأوربي بشكل خاص.ثمة دوائر عملت لقرون على تشويه صورة الفتوحات الإسلامية أمام الأوربيين بل أمام المسلمين أيضًا، على شكل كتابات ودراسات وأحيانًا على شكل حروب، ولعل

حرب «قادسية صدام» على «الفرس المجوس»!! كانت النموذج الأوضح في عصرنا بشأن تشويه الفتوحات الإسلامية، فهذه الحرب الظالمة ضد دولة الإسلام في إيران اقترنت باسم (القادسية)! وصار المجتمع المسلم الثائر المجاهد في إيران «فارسيًا مجوسيًا» إمعانًا في التشويه وفي إثارة العصبيات القومية والطائفية.

وكتابات المستشرقين ومن لفّ لفّهم سعت لتصوير الفتوحات الإسلامية في الأندلس وفي شبه جزيرة البلقان بأنها حروب اقترنت بسفك الدماء وهدم الديار، كل ذلك من أجل بثّ الرعب في نفوس الأوربيين والأمريكيين من المسلمين.

هذه التشويهات جميعًا تنهض بها اليوم (داعش) بأبشع صورة وأقوى تأثير.

قطع الرؤوس بالسيوف (في سبيل الله والإسلام)!! وهدم الكنائس وقتل النصارى، وأسر نسائهم وبيعهنّ في أسواق النخاسة، وفرض البيعة على الناس بالتهديد والإرعاب، وتشكيل محاكم الجلد والقتل.. كلها تعطي الصورة التي يريد أن يعطيها الصهاينة للغرب، كي يبرروا أعمالهم الإجرامية بحقّ الفلسطينيين.

ودرس آخر يمكن أن يتلقاه المسلمون من داعش، وهو في اعتقادي أهم الدروس يتمثل في سبب الترحيب ـ ولو كان بسيطًا ـ بهذه الظاهرة من قبل فئات من الشباب المسلمين البسطاء.

هل كل هؤلاء مرتبطون بالصهيونية؟ لا طبعًا، فلماذا وُجدت هذه الحاضنة؟

الأمة إذن أمام مسؤولية خطيرة هي سبل تجفيف هذه الحاضنة التي نشطت فيها هذه المسوخ.

الحاضنة هذه مريضة نفسيًا وفكريًا. المرض النفسي هو (الهوس الديني).

وهذه قضية يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار بجدية تامة إلى جانب الحل العسكري.

لقد تطرقتُ إلى هذه المسألة في ورقة قدمتها إلى مؤتمر الإرهاب الذي عُقد أخيرًا في بغداد حيث قلت:

«لابدّ من تناول قضية داعش من الناحية النفسية، وباعتبارها من أمراض (الهوس الديني)، وأذكر في هذا المجال تجربتين قديمة وحديثة:

الأولى: يحدثنا عنها سعدي الشيرازي من القرن السابع الهجري وهو أديب يخترق المشاعر الإنسانية، ويعبّر عنها بأسلوب أخّاذ، مستمدًا أدبه من تجاربه الواسعة، ومن معاشرته للعالمين العربي والاسلامي ومن قدرته على الغور في أعماق النفس الإنسانية.

الثانية: تجربة رجل معاصر عاش عمره في الدعوة إلى الإسلام بأصالة ومعاصرة، وعلم ودراية، وعاطفة وعقل. واكتوى بنار المتطرفين،وبثّ همومه في كتاب «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين».

قبل الدخول في الموضوع لابد أن أشير إلى مايلي:

١ – الأمراض النفسية التي تتخذ غطاء الدين كثيرة منها:

الوسواس القهري ذو الأعراض الدينية ومنها: الخوف من الموت، ومنها الإحساس بالذنب المؤدي إلى الاكتئاب. وهذه أمراض ذات طابع فردي، أي لا تتجاوز مظاهرها السلبية غالبًا إطار الفرد، ومن الممكن معالجتها في المصحات النفسية أو باتباع توجيهات طبيب نفسي.

ومن هذه الأمراض (الهوس الديني) الذي أود الوقوف عنده،ويظهر في شكل زيادة مفرطة في العبادات والكلام الكثير في القرآن، والشهوة..وأكرر كلمة (الشهوة) في دعوة الناس إلى الدين،والشعور بالفطنة وأنه صاحب رسالة، ومن هؤلاء من يدّعي أنه المصلح المنتظر أو إنه على ارتباط مباشر به، وهذه الظاهرة تشكل أحيانًا خطورة على الأمن الاجتماعي والفكري والعقائدي، ولكن خطورتها محدودة أيضًا.

غير أن الخطورة تتفاقم حينما تدخل في هذه الأدمغة المريضة فكرة أنها مكلفة بتطهير الأرض مِن كل مَن يخالفها في وجهة نظرها، عندئذ تبرز ظاهرة الإرهاب.

٢ – إن دعاة الدين يتحملون مسؤولية طرح هذه الموضوعات بوضوح وصراحة كي لا يختلط الأمر على عامة الناس بين (التدين) وبين الأمراض النفسية ومنها (الهوس الديني)، وسائر المظاهر المرضية التي تتخذ صفة التدين، إذ المظلوم في هذه الحالة هو التدين والمتدينون.

٣- إن الأمراض النفسية الخطرة التي تتخذ صفة التدين تستفحل غالبًا في حالات الإحباط واليأس، وغياب حالة الحوار،وفرض حالة الإذلال على المجتمعات.

٤- الخطاب الذي يضيّق إطار الدين،ويغيّب المقاصد الكبرى للرسالة الالهية، ويثير التعصّب ورفض الآخر وينشر روح الكراهية من شأنه أن يثير كوامن النفوس المريضة فتجد فيه ما يتناسب ونواياها ونفسياتها.

بعد هذه المقدمات أستعرض التجربتين المذكورتين:

١ – تجربة سعدي الشيرازي/ أدبيًا

سعدي الشيرازي (ولد سنة ٦٠٦ هـ) بمدينة شيراز من بلاد فارس، وهو من رموز وحدتنا الحضارية ،فهو،إضافة إلى خطابه الذي تجاوز حدود الزمان والمكان ـ استطاع أن يقدم النموذج الرائع للامتزاج الحضاري بين الإيرانيين والعرب. كما استطاع أن يبشّر بمشروع من شأنه أن يؤلف بين القلوب ويستثير فيها روح الحبّ والجمال، وينقذها من الجمود واليأس والكراهية والأمراض النفسية خاصة تلك الأمراض التي تتلبس بلبوس الدين.

أذكر هنا قطعة من شعره وأقف عند بعض ما يرتبط بموضوع الهوس الديني:

يقول تحت عنوان: (حكايت) أي حكاية ما ترجمته:

١ـقال شيخ ذكي فَطِن / وما أجمل وَقع كلام الشيوخ على الآذان!

٢- ذهبت الى هضبة مرتفعة من بلاد الهند / فرأيت رجلًا أسود بليدًا طويلًا كأطول ليالي الشتاء.

٣- وفي حضنه فتاة كشقّة قمر/تفترّ شفتيها عن أسنان كالدُرّ.

٤- وقد احتضنها بقوة في تلك الخلوة / حتى تتجسّم أمامك صورة الليل وهو يَغشي النهار.

٥- وتفجّر في نفسي هوس الأمر بالمعروف / وتحوّل الفضول إلى نار ألهبت وجداني.

٦- رحت أبحث هنا وهناك عن عصا وحجر / (وهجمت عليه وأنا أقول): يا فاقد الخوف من الله وعديم الحياء.

٧- وبالتشنيع والسبّ والضجيج والزجر / فصلت الأبيض عن الأسود كالفجر (الذي يتبيّنُ فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود).

٨- وانقشعت تلك السحابة المكفهرّة من فوق الروضة / وظهرت البيضة من تحت الغراب.

٩- ومن ضجيجي فرّ ذلك الغول العملاق /وهذه الملائكية الجسم تعلّقت بتلابيبي.

١٠- (وصرخَتْ في وجهي): أيها المتظاهر بالزهد في سجادتك ولباسك / أيها الدنيء الدنيوي المتاجر بالدين

١١- لقد قضيت العُمرَ وأنا ولهى مغرمة / بهذا الشخص ونفسي متلهّفة عليه.

١٢- والآن وقد نضجت أكلتي النيئة / عمدتَ إلى أن تخرجها من فمي وهي حارّة.

١٣- صاحت متظلّمة، و ولولت وردّدت: / أين ذهبت الشفقة؟! وأين غادرت الرحمة؟!

١٤- ألا شابٌ شهمٌ / يأخذ بحقّي من هذا العجوز؟!

١٥- إنه لا يخجل من شيبته / فيمدّ يده الى ستر امرأة أجنبية عنه.

١٦- وواصلت الصياح وهي ماسكة بثيابي / وأنا متحيّر من العار الذي يمكن أن يلحق بي

١٧- وانسلختُ فورًا من ردائي كالثوم (ينسلخ من قشره) /
إذ خشيتُ من لوم الشباب والشيوخ.

١٨- وهربت من أمام المرأة عاريًا / فقد رأيت أن ردائي في يدها أفضل من أن أكون أنا في قبضة يدها.

١٩- بعد مدّة مرّت بي (تلك المرأة) / (وقالت) أتعرفني ؟ قلت: حاشا الله.

٢٠- لقد تبت على يدكِ فإنني / لا ألجأ إلى الفضول بعد هذا.

٢١- لا ينبغي لأحد أن يفعل مثل ذلك / لأن العاقل من يهتم بعمله (ويؤدي مسؤوليته).

٢٢- ومن هذه الحادثة تعلّمت هذه العظة / وهي إني أغضّ الطرف عمّا ينبغي أن أغضّ عنه.

٢٣- وإذا كنتَ ذا عقل ورأي وتدبير وذكاء / فقل مثل مايقول سعدي وإلاّ فاسكت.

وقفات عند القصيدة:

١ – إن الذي يروي عنه سعدي (والراوي طبعا غير حقيقي) قد ذهب إلى بلاد الهند، وصعد إلى هضبة مرتفعة، في إشارة إلى أنها منطقة معزولة ليست على مرأى من الناس.

٢- إنه رأى رجلا وامرأة في حالة عاطفية، غير أنه يصف المرأة بما يدل على أن جمالها سلب قلبه، وأسف أن تكون في أحضان رجل أسود طويل.

٣- إنه في هذه الحالة تفجّر في نفسه (هوس) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألهب الفضول وجدانه.

٤- انبرى انطلاقا من هوسه ليرمي الرجل بالحجارة وليرشقة بالسبّ والعربدة.

٥- تبين له بعد ذلك أن المرأة كانت راضية بل مغرمة بالرجل، ولم يكن اللقاء بينهما عن كراهة.

من هذا كله يتبين كيف أن الهوس الديني والغريزة الهابطة اتخذت لباس الدين، ودفعت هذا المهووس إلى ارتكاب مخالفة صريحة للدين.

وسعدي بيّن ذلك بلغة أدبية فيها جمال وموعظة وعبرة.

٢- تجربة الشيخ محمد الغزالي

الشيخ محمد الغزالي بن أحمد السقا، تخصص في الدعوة والإرشاد ودرس على الشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمود أبو زهرة، ودرّس في مصر والسعودية والجزائر وتوفى سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

يلخّص الشيخ الغزالي تجاربه مع المتعصبين تحت العناوين التالية:

انشغال عن عظائم الأمور

الانشغال بالجزئيات والاستغراق فيها ينسي الفرد والجماعة مهامها الكبرى، وهو خطر مابعده خطر، وهذه الظاهرة بارزة بين المتدينين في عالمنا الإسلامي مع الأسف. يقول الشيخ الغزالي: «ولم أر أناسًا حبستهم الجزئيات وغلبتهم على رشدهم مثل صرعى التعصّب المذهبي عندنا.

وأظنّ السبب في ذلك أسلوب تعليم العوام. إن المدرّس يقول في ثقة: حكم الله كذا في هذه القضية، رأي الدين كذا في ذلك الموضوع.. فيظنّ المستمع أن ما سمع هو حكم الله ورسوله.

وما ينبغي أن يُذكر حكم بهذا الجزم إلا ما قُطع به، أما الاجتهادات المذهبية فينبغي أن يقول المفتي: أرى الحكم كذا، أو الحكم عندنا كذا، أو صحّ الدليل لدينا بكذا، ويترك مجالًا للرأي الآخر فلا يحرمه من الانتماء إلى الإسلام.

وعلى الأتباع أن يستبينوا قيمة مايؤدون وما يدعون، فلا يظنوا الإسلام حكرًا على مسالكهم وحدها. واختيار المسلم لمذهب ما، لا يجوز أن يتحول إلى لجاجة ومغاضبة، فإن ذلك يُفسد النية ويمزق الأمة ويوهى الصلة بالله سبحانه وتعالى.

والموضوع كله لا مكان فيه لمكابرة واستطالة، إنه أهون من ذلك كثيرًا.

سألني صيدلي عن حكم من أدرك الإمام راكعًا ولم يقرأ الفاتحة، أتسقط الركعة عنه أم يعيدها؟

قلت: الجمهور على سقوط الركعة عنه، وهناك من يرى قضاءها، فاختر لنفسك ما يحلو.

قال: أعرف ذلك ولكن أريد مناقشة من يرى عدم قضاء الركعة..!

قلت له: ما جدوى ذلك عليك؟ ولماذا تتكلف ما لا تحسن وتترك ما تحسن..؟

قال : ما معنى ماتقول؟

قلت: أنت صيدلي، وجميع الأدوية في دكانك من صنع الصهيونيين أو الصليبيين أو الشيوعيين، فإذا تركت أنت وزملاؤك هذا الميدان، ميدان صناعة الدواء، واشتغلت باللغو، أفتحسب ذلك يرفعك عند الله وعند الناس؟ إنك للأسف تسهم في سقوط الأمة وتجعلها غير جديرة بالحياة.

قال: إنني أبحث في حكم شرعي ولا أشتغل باللغو.

قلت: الحكم الشرعي كما قرره أهل الذكر بين أمرين، خذ منهما ماشئت، ولا يجوز أن تحوّل الموضوع إلى لبان يمضغه الفارغون. إن كل ما يصرفك عن ميدان الدواء هو في حقيقته عبث أو عيب أو ذنب تؤاخذ به.

أما أن تؤلف رابطة عنوانها «جماعة من يقضون الركعة إذا لم تقرأ الفاتحة» فهذا سخف. ما قيمة هذا الرأي أو ذاك حتى يحشّى به عقول الناس؟

إن المسلمين المعاصرين نسوا ضياع التركستان والقرم، ولم ينسوا الخلاف على الجهر بالبسملة أول الفاتحة.

لحساب من تستثار المشاعر المشبوبة وراء رأي فقهي؟ إن كان خطأ أو صوابًا، فهو مأجور. وماذا يبقى من مشاعر الناس بإزاء العقائد الأولى، والوحدة الجامعة، والتماسك في وجه أعداء لاينامون حتى يقضوا علينا..؟

إن التعصب لرأى أحد الفقهاء غباء، اعمل به إن شئت، ولا تستحمق إذا رأيت غيرك يعمل بضده.

وإذا وجد مجال لبحث وجوه النظر وقيم الأدلة ـ لمن يقدرون على ذلك ـ فلا حرج! ثم يصير كل إلى ما يرى. **إنني استيقنت من أن التعصب الشديد لمسألة ثانوية يتم على على حساب الدماء والأموال والأعراض وكرامة الأمة وحياتها.**

وأذكر صحفيًا ممن شهدوا القبض على الجماعة التي احتلت الحرم المكي هذه السنة (ويقصد سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) ، قال لي: عندما أخذنا صورًا لهم رأيت بعضهم يتململ، فقلت له: مالك؟ قال لا تصورونا فالتصوير حرام!

قلت له: ترى أن التصوير حرام، وقتل الأبرياء في المسجد وامتهان قداسته مباحان!!

هذه هي عقلية المتشبثين ببعض الأفكار والفتاوى، وذلك مبلغهم من العلم، يعمون عن العظائم ولا يرون إلا ما يضخمون من وجهات نظر، قد يكون خطؤها أجلى من صوابها.

ذلك وقد ظهر نوع آخر من التعصب! جماعة يتسمون أهل الحديث، يفهم أحدهم في الخبر المروي فهمًا معينًا، فإذا خالفته في فهمه اتهمك بأنك تخالف السنَّة، أو تخاصم الرسول (ص)، وهذا بلاء جديد شديد» (دستور الوحدة الثقافية، ص ٧٧ ـ ٧٩).

آفة المتعصبين

يظهر أن الشيخ الغزالي عانى كثيرًا من التعصّب، وواجهه بكل شجاعة، واكتوى بناره، وراح يفكّر مليًا في حالة المتعصبين، فخرج بما يلي، يقول:

«لقيت متعصبين كثيرين، ودرست عن كثب أحوالهم النفسية والفكرية، فوجدت آفتين تفتكان بهم:

الأولى: العجز العلمي، أو قلة المعرفة! هؤلاء يحفظون نصًا وينسون آخر، أو يفهمون دلالة للكلام هنا، ويجهلون أخرى، وهم يحسبون ما أدركوه الدين كلّه.

ولو أن هؤلاء اكتفوا بمنزلة المتعلم التابع ما عابهم ذلك كثيرًا، فليس كل مسلم مطالبًا بمعرفة جميع الأقوال الواردة والدلالات المحتملة.

المصيبة أن يشتغلوا مفتين أو موجهين، وهم بهذا المستوى الهابط!...

والآفة الثانية في التعصب المذهبي: سوء النية، ووجود أمراض نفسية دفينة وراء السلوك الإنساني المعوج، ويغلب أن تكون آفات الظهور والاستعلاء أو رذائل القسوة والتسلط. كنت في مجلس قرآن ختم القارئ فيه التلاوة بقوله: صدق الله العظيم. فإذا جالس ينتفض كأنما لسعته عقرب يقول: هذه بدعة.. قلت له: لا أبحث معك أنها بدعة أو سنّة، وإنّما أسالك: ما هذا الفزع؟ لكأنما سقط على رأسك حجر!! الأمر ما يعالج بهذه العاصفة . إجلس.

هذا الصنف من الناس لم يهذّب نفسه بالأخلاق التي بُعث بها صاحب الرسالة

ليتمّم مكارمها.. **إن صور العبادة عنده غطاء لقلب غليظ، وغرائز فجّة.**

وهو يجد متعة في قضايا الخلاف ليثور ويفور، **وظاهر الأمر الغضب للدين، وهو في الحقيقة ينفّس عن طبيعة معتلّة، وتربية ناقصة أو مفقودة»** (م.ن، ص ٧٤ - ٧٥).

مرضى القلوب

حين تحدّث الغزالي عن آفة المتعصبين لخصها في آفة العجز العلمي وآفة سوء النية، الأولى: علمية، والثانية: نفسية. والواقع أن الرجل يهتم بالعامل النفسي أكثر، وهذه هي النقطة البارزة في مشروع الشيخ. يخصص فصلًا للانحرافات النفسية والبدنية، ويرى **أن الانحرافات النفسية أخطر من البدنية**، فالمعاصي البدنية «شهوات محددة الخطر -على قبحها وسوء مغبتها- فالإسراف في الطعام مثلًا، يسلب المرء عفّته. وربّما كان للبدن تطلّعات أشدّ ضراوة، **ومع ذلك فهو أدنى من جنون العظمة أو عبادة الذات التي تقود إلى الفرعنة وقسوة القلب وإهلاك الحرث والنسل في سبيل المجد الشخصي!!».**

«والاغترار بالنفس أو الدوران حول الذات لا يبدو في طلب الرياسة بالأساليب القذرة وحسب، كلاّ إنه قد يبدو في تنقّص رجل معروف أو اعتناق رأي شاذ، أو المكابرة في حوار، أو ما شابه ذلك من مواقف لأناس يعملون في الميدان الديني أو الميدان المدني على سواء...».

«وفي ميدان التدين تعتبر الطاعات التي يقوم بها هؤلاء ستارًا لنيات مغشوشة أو ترجمة معكوسة لما يكمن في عقولهم الباطنة..».

«وهؤلاء المرضى بالشذوذ والحقد يكثرون من التلاوة وصور العبادة، وينتهزون الفرص التي تتنفس فيها طباعهم فيضربون ضربتهم، وقد كانوا كثرًا في جيش

علي بن أبي طالب، ولكنهم شغلوا عليًا عن هدفه حتى انهزم، وكانت صيحتهم: لا حكم إلا لله! وكان تعليق علي: «كلمة حق أريد بها باطل»!! إنّ المتدينين من هذا الصنف الغاش بلاء على الدين وعقبة أمام امتداده».

ويظهر أن الشيخ الغزالي مثله مثل كل الدعاة المخلصين قد عانى من مرضى النفوس كثيرًا، ولذلك فإنه يحاول أن يبحث عن جذور هذا المرض. يقول: **«لقد عناني من أمر العلل النفسية أو معاصي القلوب لأني اكتويت بنارها، ورأيت من أدعياء التدين ما يدعو للجزع» .**

ويخاطب هؤلاء الأدعياء المتزمتين الذين يكيلون التهم للآخرين، ويدورون مع ذواتهم أينما دارت بلغة غاضبة فيقول: «ونحن نعرف أن آباءكم قتلوا عليًا باسم الدفاع عن الوحدة الإسلامية، وقتلوا عثمان باسم الدفاع عن النزاهة الإسلامية، وقتلوا عمر باسم الدفاع عن العدالة الإسلامية، **فيا أولاد الأفاعي إلى متى تتسترون بالإسلام لضرب الرجال الذين يعيشون له ويجاهدون لنصرته؟!** ولحساب مَن تكوّن هذه الضغائن عليهم، وتسعون جاهدين للإيقاع بهم وتحريش السلطات عليهم..؟!».

ويقول أيضا في لغة حادّة: **«وهؤلاء المرضى المعتوهون يفهمون في المرويات فهمًا ما، ثم يقولون: هذا هو النص! ما نراه نحن هو رأي الله ورسوله، أي حكم الله ورسوله!**

ومعنى ذلك أنك حين تقاومهم تقاوم الإسلام نفسه وتحارب الله ورسوله. وهذا هو البلاء المبين.

ونقول جادين: إن الإسلام لن يحكم ولا يجوز أن يحكم إذا كان أولئك العميان قادة قافلته والمتحدثين باسمه، فإن أمراضكم النفسية والفكرية تمحق دين الله ودنيا الناس على سواء..

الإسلام نور وهؤلاء ظلمة، إنه طهر وهؤلاء قذى !!».

موقف الشيخ الغزالي من هؤلاء المرضى ليس ردّ فعل لما وجهوه إليه من إساءات ، بل إنه يأتي في إطار حديثه عن «الوحدة الثقافية بين المسلمين» لأنّ **«كثيرًا من الخصومات الفكرية القديمة في علم الكلام كان مظهرًا للعلل النفسية أكثر مما هو لخدمة الإسلام..».**

أهمّ ما يجول حوله فكر الشيخ الغزالي بشأن سبب الانحرافات النفسية هو **«انعدام الإخلاص»**. فالإخلاص «روح الدين وآية الصدق، وسياج العمل، وضمان قبوله في الدنيا والآخرة.. وهو عنصر نادر بين الناس، لأننا نقصد بالإخلاص تجريد القصد لله وحده، وابتغاء وجهه الكريم.. وأغلب الناس يدورن حول أنفسهم فيما يعملون أو يتركون، وينشدون مصالحهم الخاصة، أو منافعهم العاجلة».

لكن الشيخ حينما يقرأ عبارة تعنى بسبب الانحرافات النفسية يلتقطها، ويرتاح إليها، وينقلها في كتابه، مثل ما نقل عن مصطفى أمين قوله عن عامل الخوف وتأثيره في سلوك الأفراد إذ يقول: «عرفت جبناء يخافون من أشباحهم ويرتعدون رعبًا إذا رأوا فأرًا يجلس على كرسي، وتسيب مفاصلهم أمام غضب عمدة أو تهديد مأمور!

وعرفت شجعانًا تطول قامتهم أمام العواصف. يثبتون في مواجهة الأعاصير. يذهبون إلى الموت وكأنهم يذهبون إلى حفلة شاي!

وكنت ألاحظ دائما أن الجبان لا يؤمن إلا بنفسه. إلهه في داخله. يتعبد له ويصلّي له ولا يشرك به أبدًا. ولهذا فهو خائف على رزقه، وخائف على وظيفته، وخائف على حياته، خائف من كل شيء، لا يطمئن إلى شيء ولا يثق بشيء. ولهذا فهو يرى الجبن هو المخبأ الذي يتحصن فيه من أخطار الحياة!

ولم أر في حياتي جبانًا وصل إلى المقدمة. لابد أن يتعلق بذيل صاحب سلطة، أو

صاحب جاه. وهو ليست لديه الشجاعة أن يتقدم خطوة، فهو إذا قدّم ساقًا أخّر ساقًا، ولهذا يبقى في مكانه طويلا، وإذا دفعته الأيام إلى الأمام عاش صغيرًا في المكان الكبير، ويتصرف كما يتصرف الصغار. يدس ولا يواجه. يضرب من الخلف ولا يقاتل من أمام. يهمس ولا يرفع صوتًا. لأنه أجبن من أن يعلن رأيه. وهو في أغلب الأحيان لا رأي له، فهو يقبل على الشمس إذا أشرقت ويدير لها ظهره إذا غربت.

وخوفه يجعله يتضاءل . ويرى خصومه يكبرون ويتعاظمون. ولو كان شجاعًا لرأى الناس بأحجامهم الحقيقية. وهو له قامة تساوى قامة الناس، ولكن في داخله دودة الجبن التي تجعله يحس أنه دودة صغيرة، ولهذا يتضاءل ويصغر وينكمش.

والشجاع لا يخاف إلا الله. إذا حارب حارب في النور، وإذا آمن برأي أعلنه ولم يكتمه، وإذا اعتنق عقيدة قاتل من أجلها. والذين في قلوبهم الإيمان يشعرون بقوة هائلة، تقتحم الأهوال وتواجه الأعاصير وتحتمل المحن والخطوب. والإيمان يصنع من القزم عملاقًا، والجُبن يحوّل العملاق إلى قزم صغير! الإيمان يمنح الإنسان جيشًا يحارب معه، والجبن يجرد الإنسان من كل سلاح، فيستسلم قبل أن يدخل المعركة، ويرفع الراية البيضاء عندما تطلق الرصاصة الأولى» (م.ن، ص ١٤١ ـ ١٤٩).

استخلص من التجربتين في هذا المجال ما يلي من ضرورات:

١ – الأخذ بنظر الاعتبار العامل النفسي ضمن العوامل المؤدية إلى الإرهاب.

٢- طرح المشروع الإسلامي بأبعاده الشاملة، خاصة فيما يرتبط بأهدافه الإنسانية الكبرى، وبمقاصده الحضارية.

٣- إشاعة روح الحوار والشفافية والعقلانية والوسطية والاعتدال في المجتمع.

٤- التركيز على تنمية الأمل في النفوس واقتلاع الشعور باليأس والاحباط والهزيمة النفسية.

٥- إشاعة ثقافة الجمال والفن الرفيع وغرس العواطف الإنسانية في التربية والتعليم والإعلام». (انتهى ما ذكرته في الورقة)

ولابدّ من الوقوف عند خلفية أخرى لظاهرة الإرهاب وهي الموروث الطائفي، هذا الموروث الذي تصل جذوره إلى عصور استغلال السلطة السياسية الحاكمة في العالم الإسلامي (الاختلافات) الطبيعة بين الفقهاء والمتكلمين ليحولوها إلى (خلافات) بين عامة الناس، يناصر الحكام هذه الفئة ضد هذه الفئة، من أجل أن يشغلوا المسلمين فيما بينهم،وبذلك تسلم سلطتهم من غضب الناس ومن التوجه إلى ما ينزلونه بالأمة من ظلم واضطهاد.

غير أن ذلك كله ما كان يقضي على الشعور بالأمة الإسلامية الواحدة المتعاونة المتناصرة المتعارفة.

لكن الأمور اختلفت في عصر الاستعمار. إذ استغلّ المستعمرون (الاختلافات) ليمزّقوا المسلمين إلى أمم وشعوب متصارعة قوميًا وطائفيًا وإقليميًا، وفي هذا الجوّ عشعش الاستعمار وفرّخ، وفرض سيطرته على المسلمين، وكرّس روح التخلّف فيهم، فظهر التكفير، وفتاوى إباحة الدماء والأعراض والأموال، و وراء (داعش) فيما وراءها هو هذا الإرث البغيض.

والخروج من هذه الحالة لا تكون إلاّ بتحقيق هدف «ثقافتنا» وهو استعادة مسيرتنا الحضارية على مستوى احتياجات العصر.

وقد ذكرت في كتاب صدر أخيرًا تحت عنوان: «مسيرة التقريب» العلاقة بين التوجه الحضاري وبين دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية حيث قلت:

«مسيرة التقريب مقاصدية التفكير، لأنها تضع نصب عينيها الأهداف الأساس لشريعة السماء، فترى أن الاختلاف بين البشر صفة طبيعية ناتجة عن تكريم الله سبحانه لهذا الكائن، حيث جعله صاحب إرادة في تفكيره وتصرفاته، ولابد من توظيف هذا الاختلاف لصالح الإنسان عن طريق التبادل المعرفي بين البشر، أو «التعارف» بالتعبير القرآني.

ومسيرة التقريب رسالية في حركتها، لأنها تستهدف إنقاذ الأمة من عوامل الضعف التي تنخر فيها متمثلة في النزاع والشقاق والتشرذم والصراع.

ومسيرة التقريب حضارية لأنها تريد أن تعيش الأمة أهدافها الكبرى المتمثلة في استئناف مسيرتها الحضارية أو الإقلاع الحضاري، ليكون لها مكانة بين أمم الأرض.

ومسيرة التقريب تقوم على أساس خطاب واقعي لا خيالي، إذ لم يعد توحيد الأمة ضرب من الخيال كما كان يتصوّر بعضهم، خاصة ونحن نشهد التكتلات العالمية بين بلدان ليس بينها ما يجمعها سوى المصالح المادية، بينما الأمة المسلمة يجمعها الإيمان والفكر والعقيدة والعبادات والآمال والآلام.

ومسيرة التقريب فريضة نصّت عليها الآيات والأحاديث وأكدت عليها سيرة الرسول وأهل بيته وصحابته والسلف الصالح من المسلمين، ولا توجد فريضة بعد التوحيد أكد عليها الإسلام أكثر من وحدة الكلمة والنهي عن التفرق.

ومسيرة التقريب ضرورة لابدّ منها أمام ما يواجه المسلمين من تحديات وما يكيدون لهم من مخططات تستهدف إذلالهم، ومصادرة هويتهم، والسيطرة على مقدراتهم، وصدّهم عن العودة إلى حياتهم الإسلامية عن طريق هزيمتهم النفسية، وإثارة المخاوف والهواجس بينهم، ومنعهم من أي تقدم علمي أساس، وإثارة حرب حضارية ضدّهم في إطار ما سمّوه صراع الحضارات، بل إعلان حرب صليبية عليهم كما صرّحوا بذلك في فلتات لسانهم.

هذه المسيرة اقترنت بمستوى وعي الأمة وامتلاك إرادتها. كلما استيقظت الأمة وانفتحت على مسؤولياتها الرسالية والإنسانية ارتفع فيها صوت التقريب، وكلّما استطاعت أن تمتلك زمام أمورها وشعرت بقدرتها وإرادتها ازداد اهتمامها بالتقريب، والعكس صحيح.

بعد كل انتصار تحققه الأمة في حقل مواجهة التحديات وفي مجال التطلع نحو المستقبل الواعد تنتشر موجة من دعوة التقريب، لكن هذه الموجة تبقى على السطح ولا تتعمق في الجذور، لأن وجود الأمة هشّ قابل للاختراق، فسرعان ما يدخل أعداء الأمة لاحتواء انتصارها وتبديله إلى هزيمة نفسية.

الانتصار يبعث على العزّة ومن ثمّ إلى الحياة.. ومن طبيعة الحياة ظهور ارتباط عضوي بين أجزاء الجسم الحي، ولكن الهزيمة تبعث على الذلّ، ومن ثم إلى الموت، وإلى تفكك أجزاء الجسم الميّت.

نحن تقريبيون بقدر ما فينا من حياة.. والصراع بين التقريب وأعدائه إنما هو في الواقع صراع بين الحياة والموت. ونحن تقريبيون بقدر ما فينا من «إسلام» لأن الإسلام هو دعوة ﴿لما يحييكم﴾ والحياة كما ذكرنا مقترنة بالتقريب.

استعراض مسيرة التقريب يكشف لنا حقائق على غاية من الأهمية ومنها:

١ – أن دعاة نهضة الأمة هم دعاة تقريب أيضًا، فلا تجد نهضويًا طائفيًا، وإذا انزلق داعية النهضة في مطب طائفي سرعان ما يعود إلى رشده، والى انتهاج طريق التقريب.

٢- حين يُعرض على الساحة المشروع الإسلامي الشامل فكريًا أو عمليًا فإنه يضع الأمة أمام مَثَلها الأعلى الكبير، ويعقبه تجاوز الحالة الطائفية، وتوحيد الصفوف.

٣- إن قوى الهيمنة العالمية تراهن كثيرًا على الطائفية لفرض سيطرتها على العالم الإسلامي، من هنا حين تبرز في الأفق ظاهرة توحيد الأمة أو ما يؤدي إلى توحيد الأمة فإنها تسارع عبر قنواتها إلى إثارة الزوبعة الطائفية.

٤- إن مسيرة التقريب رغم تعثّرها ورغم ما يواجهها من عقبات هائلة بسبب التحديات الداخلية والخارجية، هي مسيرة تصاعدية، وذلك مؤشر على أن مسيرة الأمة، رغم كل ما يواجهها، هي في حالة تكامل نحو استعادة الهوية واستئناف المسيرة الحضارية».

(انتهى ما قلته في مسيرة التقريب)

بعد هذه الوقفة أمام تحدّي (داعش) نأمل أن يكون الاهتمام باستئناف مسيرة الأمة الحضارية على مستوى العصر أكثر فأكثر، فذلك هو السبيل الوحيد لتجاوز أزماتنا، والله ولي التوفيق.